- ٢٠ -

جدل القرآن (١)

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يُحتاج إلى برهان على ثبوتها ، أو دليل على صحتها ، ولكن المكابرة كثيرًا ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشُبَه تلبسها لباس الحق ، وتزينها فى مرآة العقل ، فهى فى حاجة إلى مقارعتها بالحجة ، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت ، والقرآن الكريم - وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة - وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله ، فألجم خصومتهم بالحس والعيان ، وعارضهم فى أسلوب مقنع ، واستدلال ملزم ، وجدل محكم .

تعريف الجدل

والجدل والجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم ، أصله من جدلتُ الحبل : أى أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه .

وقد ذكره الله فى القرآن على أنه من طبيعة الإنسان فى قوله : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾ (٢) أى خصومة ومنازعة .

وأمر رسول الله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التى تلين عريكتهم فى قوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) .

---

(١) أفرده من المتأخرين بالتصنيف العلامة سليمان بن عبد القوى بن عبد الكريم المعروف بابن أبى العباس الحنبلى نجم الدين الطوفى المتوفى سنة ٧١٦ هجرية .

(٢) الكهف : ٥٤ (٣) النحل : ١٢٥

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة فى قوله : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

ومثل هذا من قبيل المناظرة التى تهدف إلى إظهار الحق ، وإقامة البرهان على صحته ، وهى الطريقة التى يشتمل عليها جدل القرآن فى هداية الكافرين وإلزام المعاندين ، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة ، قال تعالى : ﴿ وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ (٢) .

* * *

طريقة القرآن فى المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيرًا من الأدلة والبراهين التى حاج بها خصومه فى صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع فى أسلوب واضح النتائج ، سليم التركيب ، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث .

ولم يسلك القرآن فى الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية فى المقدمات والنتائج التى يعتمدون عليها ، من الاستدلال بالكلى على الجزئى فى قياس الشمول ، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر فى قياس التمثيل ، أو الاستدلال بالجزئى على الكلى فى قياس الاستقراء :

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب ، وخاطبهم بما يعرفون .

(ب) ولأن الاعتماد فى الاستدلال على ما فُطِرَت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكرى عميق أقوى أثرًا وأبلغ حجة .

(جـ) ولأن ترك الجلى من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفى نوع من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة ، وهو على طريقة المناطقة ليس سليمًا من كل وجه ، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة فى القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(١) العنكبوت : ٤٦ — (٢) الكهف : ٥٦

فى كتابه : « الرد على المنطقيين » : « وما يذكره النُظَّار من الأدلة القياسية التى يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شىء منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، فإنَّا إذا قلنا : هذا محدَث ، وكل محدث فلا بد له من محدث ، أو ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، إنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق . . لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » . . وقال : « فبرهانهم لا يدل على شىء معين بخصوصه ، لا واجب الوجود ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلى ، والكلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومَن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد أعرف الله » ، وقال : « وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات فى كتابه ، كقوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) وغير ذلك ، فإنه يدل على المعين كالشمس التى هى آية النهار . . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (٤) فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه ، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه » .

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد ، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولى أو تمثيلى ، بل هى مستلزمة لمدلولها عينًا ، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول ، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بيِّن واضح كانتقال الذهن

---

(١) البقرة : ١٦٤
(٢) الرعد : ٤
(٣) يونس : ٢٤ ، وسور أخرى .
(٤) الإسراء : ١٢

من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها ، وهذا النوع من الاستدلال بدهى يستوى فى إدراكه كل العقول .

قال الزركشى [(١)] : « اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما بين برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ .. الآية [(٢)] .

والثانى : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن مَن استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزًا ، فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق ، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء .

وعلى هذا حُمِلَ الحديث المروى : « إن لكل آية ظهرًا وبطنًا ولكل حرف حدًا ومطلعًا » لا علىَ ما ذهب إليه الباطنية ، ومن هذا الوجه كل مَن كان حظه فى العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر ، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أُولى العقل ، ومرة إلى السامعين ، ومرة إلى المفكرين ، ومرة إلى المتذكرين ، تنبيهًا أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [(٣)] وغيرها من الآيات .

واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين ... ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد ، بدلالة التمانع

---

(١) انظر : « البرهان » (٢/ ٢٤ وما بعدها) ، بتصرف .

(٢) إبراهيم : ٤   (٣) الرعد : ٤

المشار إليه فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) . لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ، ولا يتسق على إحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما ، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم ، وأراد الآخر إماتته ، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف ، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، والإلَه لا يكون عاجزاً .

* * *

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه فى ألوهيته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير فى القرآن .

فمنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، فَلا تَجْعَلُواْ للهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، الرَّحْمَنُ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

(ب) ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد ، ولهذا صور مختلفة :

١ - منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التى يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق فى مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ، بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ، أَمْ هُمُ

---

(١) الأنبياء : ٢٢ (٢) البقرة : ٢١ - ٢٢ (٣) البقرة : ١٦٣ - ١٦٤

الْمُسَيْطِرُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۞ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۞ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

٢ - الاستدلال بالمبدأ على المعاد ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ۞ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۞ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (٤) - ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ (٥) .

٣ - إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها - كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٦) ردا على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ (٧) .

٤ - السبر والتقسيم - بحصر الأوصاف ، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم ، كقوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ،

---

(١) الطور : ٣٥ - ٤٣ (٢) سورة ق : ١٥ (٣) القيامة : ٣٦ - ٤٠
(٤) الطارق : ٥ - ٨ (٥) فصلت : ٣٩ (٦) الأنعام : ٩١
(٧) الأنعام : ٩١

قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

٥ - إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد - كقوله تعالى - ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) فنفى التولّد عنه لامتناع التولّد من شىء واحد ، وأن التولد إنما يكون من اثنين ، وهو سبحانه لا صاحبة له ، وأيضاً فإنه خلَق كل شىء ، وخلقه لكل شىء يناقض أن يتولّد عنه شىء ، وهو بكل شىء عليم ، وعلمه بكل شىء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالما أن يكون كالأمور الطبيعية التى يتولّد عنها الأشياء بلا شعور - كالحار والبارد - فلا يجوز إضافة الولد إليه (٣) .

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة ، كمناظرة الأنبياء مع أممهم ، أو فريق المؤمنين مع المنافقين ، وما شابه ذلك .

* * *

---

(١) الأنعام : ١٤٣ - ١٤٤ (٢) الأنعام : ١٠٠ - ١٠١

(٣) هذه الفقرة من كتاب « الرد على المنطقيين » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وهى رائعة فى الاستدلال .